فما هي المآخذ التي يمكن أن نأخذها عليه؟

الواقع إنها ليست كثيرة. فالباحث يوسف حداد، الذي حققه وجمع مادته وأنجزه، حسن اللغة، عميق التحليل، بذل كل ما يجب أن يبذله باحث في بحثه. إلا أنه بالغ قليلاً في عملية الدخول في التفاصيل، الدقيقة جداً أحياناً، والتي ليست على جانب كبير من الأهمية.

بتعبير آخر إن الكتاب الذي بلغ ٣٧٥ صفحة من القطع الكبير والحرف «الناعم»، والذي لم يترك في صفحة من صفحاته مجالاً لمتنفس، كان يمكن أن يأتي بنصف هذا العدد من الصفحات، دون أن يفقد أهميته...

إن المبالغة في التمحيص والتدقيق، وإثبات كل شاردة وواردة، يصلان في النتيجة، إلى عكس الغاية التي رمى إليها المؤلف. فكثرة التفصيل، هي تماماً، مثل الإقلال منه، وتجاوز ما لا يجوز التجاوز عنه. وتقول العامة عندنا: «الزائد أخو الناقص...». خاصة إذا كانت لغة الكاتب، على تماسكها، تفتقر إلى شيء من الطلاوة الأدبية الأمر الذي سيسوق إلى ما يشبه الاملال ولا ريب...

ثمة أمور ركّز عليها المؤلف كثيراً، ولكنه جاء بها بلغة التعميم دائماً، كلومه العائلات الكبيرة، المتعاملة مع المستعمر، المنفّذة لأهدافه، وهي بالتالي واصلة إلى التمكين للصهاينة في أرض فلسطين. فقد تحاشى، أكثر مما يجب، ذكر أي نموذج منها. وهكذا يحق لكل إبن عائلة فلسطينية كبيرة، أن «يلمس رأسه» ويتساءل: هل هو المقصود بذلك؟... علماً، أن بين تلك العائلات، من كانوا من خيرة المناضلين والثائرين. إذن كان عليه إما أن يحدد، بالجرأة العلمية المطلوبة، أو ألا يكثر من ترداد كلمة «العائلات البرجوازية... [كذا!]... التي تعاونت...» الى آخره... فيصبح مجرد انتماء إنسان لها، ولو كان من خيرة المناضلين، تهمة أو ما يشبه الشتيمة. هكذا، لله، وبشكل مجاني. علماً، أنه، حتى في أكثر النظريات تطرفاً في العالم، هناك مقولة تؤكد، بأن الإنسان يمكن أن «يخون» طبقته. أي أن يتخلى عنها، في سبيل قضية عامة أو ثورة...

ثمة ملاحظة أخرى، لا بد من التوقّف عندها. وهي استعمال كلمة «فلسفة السكاكيني» في الفصل الثالث من الكتاب.

والواقع أننا، في بلادنا، نكثر من استعمال هذه الصيغة، بمناسبة ودون مناسبة؛ الأمر الذي كنا نربأ بالمؤلف، من الوقوع فيه.

فنحن نقول، مثلاً، جبران الفيلسوف (!) وفيلسوف الفريكة، والمقصود أمين الريحاني، وهلم جرا، حتى أصبح كل من قال مثلاً سائراً، أو حكمة ولو ساذجة أحياناً، فيلسوفاً عندنا. وهذا الأمر، ناجم عن الرغبة فيما يشبه المباهاة، وتأكيد الذات، دون مبرر، ودون أخذ بأبسط شروط هذه الصيغة.

فالفيلسوف، ليصبح كذلك، يفترض أن يكون قد قدّم نظرية ما، حلاً معيناً لمعضلات الوجود، وطرح ما قدّمه على الناس، والمشتغلين بالفلسفة بخاصة، ونشأ هناك، ما يشبه الاجماع، على اعتباره فيلسوفاً. وإلا فهو متفلسف وهذا شأن غير ذاك الشأن. فالراعي في البرية، إذا نظر إلى النجوم ليلاً، وتساءل عن صانعها، أو عن كيفية تكوينها، عُدّ متفلسفاً، ويكون قد طرق أول باب من أبواب الفلسفة، الذي هو التساؤل العفوي والبريء...

فحتى المعرّي، لا يعتبر فيلسوفاً، لأنه لم يأتِ بتلك النظرية المتكاملة، ولم يقدّم حلاً واضحاً، ومنهجياً لرؤيته لمشاكل الوجود.

سارتر وكامو، وكثيرون غيرهما لا يعتبرون فلاسفة، لأن مواصفات الفيلسوف لا تنطبق عليهم. فكيف استسهل المؤلف إطلاق كلمة فلسفة أو فيلسوف على السكاكيني؟ والأدهى من ذلك أننا حين نقرأ الفصل المشار إليه، نجد أن المؤلف، يعتبر فعلاً، ان مجرد الخواطر والنظرات والسلوك الشخصي للرجل، يبيح له أن يصبح فيلسوفاً... إنها عقدة المبالغة العربية، في هذه المرحلة على أية حال، وعلى أكثر من صعيد. فما